جيرونتولوجيا الشيخوخة المُسنّ، بين سيكولوجيا النهاية وسوسيولوجيا العمر الثالث

Gerontology of Aging: The elderly between the psychology of the end and the sociology of the third age

أحمد الدهمي

مختبر الأبحاث والدراسات النفسية والاجتماعية والثقافية جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس- المغرب

Ahmed Ed-douhmy

Sidi Mohamed Ben Abdellah university, Fes-Morocco

ملخص: تعتبر الجرونتولوجيا ملتقى طرق علمية مختلفة؛ لأن مهمتها إرشاد علوم كـ: السيكولوجيا، السوسيولوجيا، والبيولوجيا إلى الطريق التي ينبغي أن تسلكها في مقاربتها للشيخوخة.والدول المتقدمة وعت باكرا أهمية المقاربة العلمية للشيخوخة؛ فرأينا كيف تكاثرت العديد من المجلات العلمية المتخصصة التي تحمل في عنوانها لفظ جيرونتولوجيا، وخصصت اليونسكو أيضا مبحثا في هذا المجال مع إصدارات عديدة.هذا المقال له رهان هو فتح نافذة على المسن بمنظوري علم النفس والسوسيولوجيا في إطار المقاربة الجيرونتولوجية في حدود رؤية بانورامية عامة حول وضع المسن وكيف قارب علما السوسيولوجيا والسيكولوجيا قضايا المسنين.

الكلمات المفتاحية: جيرونتولوجيا، المسن، الشيخوخة، سوسيولوجيا المسن، سيكولوجيا المسن.

Abstract: Gerontology is a crossroads of different scientific methods; its mission is to teach science such as psychology, sociology, and biology to the path it should take in its approach to aging.And the developed countries early aware of the importance of the scientific approach to aging; we saw how many specialized scientific journals have proliferated, bearing the title of the word Gerontology, UNESCO has also devoted a topic in this area**.**

This essay is a bet to open a window on older people from the perspectives of psychology and sociology within the framework of the

gerontological approach within the limits of a general panoramic view on the situation of the elderly and how sociology and psychology have approached the issues of the elderly.

Keywords: Gerontology, Elderly, Aging, Sociology of the elderly, Elder psychology.

مقدمة

من هو المسن؟ هذا السؤال يجيب عنه علم هو الجيرونتولوجيا أو علم الشيخوخة، وهذه التسمية الأخيرة تسمية عربية لا تبدو لنا موفقة؛ لأن رنينها العربي لا يعكس صوتها الحقيقي في لغتها الأم. نقترح أن يسمى إما الجيرونتولوجيا مباشرة أو علم المسنين، أو علم التقدم العمري. هذا العلم حديث الولادة، هذا إذا ما جاز لنا تسميته علما؛ لأن الجرونتولوجيا هي فقط ملتقى طرق علمية أو قل هي مصب علوم مختلفة؛ لأنها في النهاية إنما هي منارة هادية مهمتها إرشاد علوم كـ: السيكولوجيا، السوسيولوجيا، والبيولوجيا إلى الطريق التي ينبغي أن تسلكها في مقاربتها للشيخوخة(Cariou, Michel,1982,P147).

وهذا ما يشهد عليه التعريف الذي قدمه Michel Philibert ميشال فيليبير **"هي الدراسة العلمية للتقدم العمري الإنساني"** والمقصود هو حصيلة ما تقدمه تلك العلوم في مقاربتها للمرحلة العمرية المسماة شيخوخة. هكذا إذن سنسميه **تخصص الجيرونتولوجيا.**

الجيرونتولوجيا تخصص عقدت له مؤتمرات عالمية عديدة، مؤتمر 1960 أشهرها بإشراف Pacaud(باكو) إلى جانب ثلة من الأطباء وعلماء النفس، والسوسيولوجيين وعلماء الديموغرافيا (إذ أن هناك شيخوخة للمجتمعات أيضا، وهذا ما تتناوله الديموغرافيا).

وما يدعو للإعجاب أن الدول المتقدمة وعت باكرا أهمية المقاربة العلمية للشيخوخة؛ فرأينا كيف تكاثرت العديد من المجلات العلمية المتخصصة التي تحمل في عنوانها لفظ جيرونتولوجيا، وخصصت اليونسكو أيضا مبحثا في هذا المجال مع إصدارات عديدة.

أما المجتمعات العربية ؛ فيبدو أنها تمتص نسغ الحياة وتلقي بالأفراد إلى المجهول عندما يشيخون، وإذا كان المجتمع المغربي يتكفل فيه الجيل اللاحق بالسابق (وهذا ما لن نعول عليه طويلا) من ناحية الرعاية؛ فإن علومنا الإنسانية هي أيضا على ما يبدو قد شطبت من قاموسها شيئا اسمه المسنون. أما الجيورونتولوجيا فإن هذه العلوم لم تصب فيه أي شيء.

فإذا ما كان لهذا المقال من رهان فهو فتح نافذة على المسن بمنظوري علم النفس والسوسيولوجيا في إطار المقاربة الجيرونتولوجية في حدود رؤية بانورامية عامة.

أهمية وأهداف الدراسة:

إن دراسة الشيخوخة من المنظورين السيكولوجي والسوسيولوجي تكتسي أهميتها من ضرورة رد الاعتبار لفئة المسنين في عالمنا العربي، فإذا كانت المجتمعات العربية توقر المسن و ترسخ في الأذهان والسلوكات الاحترام الواجب للمسنين وتُرسي قيما إيجابية فيما يتعلق بالتضامن و التكافل تجاه هذه الفئة، فإنه من جهة أخرى هناك على العموم نوع من النقص على مستوى برامج و مشاريع الرعاية الاجتماعية خصوصا و أنه حتى هذه المشاريع غالبا ما لا تلقى إقبالا لكونها تظل دوما موصومة بأنها تعبير عن عدم رغبة الأبناء في التكفل بآبائهم و أمهاتهم بالإضافة إلى التغيرات الكبيرة التي عرفتها بنيات الأسر عربيا و تحولاتها في ظل إيقاع متسارع للحياة الاجتماعية. ومن هنا أهمية هذه الدراسة إذ أنها تمنح معرفة أعمق بماهية المسن سيكولوجيا و سوسيولوجيا و تسلط الضوء على أهم قضاياه، و من جهة أخرى فهي تعد مدخلا مفيدا للاطلاع على حقل هام من حقول الدراسات في العلوم الإنسانية وهو حقل الجيرونتولوجيا أو علم الشيخوخة.

أما الأهداف التي سطرناها فهي تتأسس على تقديم الأطر النظرية التي قامت بدراسة المسنين سيكولوجيا و سوسيولوجيا و ذلك قصد تمكين القارئ من التعرف على أهم قضايا الجيرونتولوجيا و تقديم المفاهيم الأساسية التي تمت صياغتها لفهم و تفسير الأبعاد النفسية للمسن و الأبعاد الاجتماعية لعلاقاته بمحيطه الاجتماعي و ذلك من أجل اقتراح مسارات للتفكير العلمي في العلوم الإنسانية فيما يخص هذه الفئة.

أولا :الجيرونتولوجيا – La gérontologie- العلم بالمسنين

الجيرونتولوجيا هي علم الشيخوخة، موضوعها دراسة أشكال وأسباب التغيرات التي يُلحقها التقدم في السن بالكائنات الحية على جميع الأصعدة البيولوجي، السيكولوجي والاجتماعي وعلى مستوى كل أشكال التعقيد (جزيئة- خلية- عضو- جسد- جماعة) والأمر هنا لا يتعلق بتخصص علمي قائم الذات، بل بمقاربة خاصة لمشكلات الحياة، فكل الترسانة التقنية والمفاهيمية لمختلف العلوم يمكنها، وكذلك ينبغي عليها أن تسهم في ازدهار الجيرونتولوجيا.

كلود باليي وآخرون في مقالهم بالإنسكلوبيدياأونيفرساليسEncyclopidiaUniversalis يقسمون الجيرونتولوجيا إلى: بيولوجية: مهمتها تحديد التغيرات التي يلحقها الزمن بالكائنات الحية، بقياس مدى انخفاض الكفاءات الفيزيولوجية والسيكولوجية ومحاولة رصد نصيب تأثير كل من الوراثة والمحيط على اختلاف وتيرة الشيخوخة من فرد لآخر، فهي إذن جيرونتولوجيا تجريبية.

-جيرونتولوجيا إكلينيكية أوgériatrie : تركز على دراسة العلاقة بين التقدم في السن ومختلف الأمراض التي تصيب الأشخاص المسنين، وتحاول تطوير وتحسين العلاج لمقاومة هذه الأمراض.
-المقاربة السيكولوجية: - ملحقة بالجيرونتولوجيا الإكلينيكية – تهتم بدراسة التغيرات الذهنية والعاطفية للمسن، وكذا الاختلالات السيكولوجية التي تظهر عند هذه الشريحة من بني البشر.
-جيرونتولوجيا اجتماعية Gérontologie sociale : تهتم بدراسة كافة التغيرات التي يلحقها التقدم في السن بالعلاقات الاجتماعية بين الأفراد. وكذا أثر الوضعيات الاجتماعية للمسنين على الجوانب الاقتصادية (Balier,Claude et all Gérontologie Encyclopaedia universalis, 2011).

كلمة Gérontologie ندين بها لـ"ميتشنيكوف" (1903م)، لكن كان يجب انتظار مرحلة الحرب العالمية الثانية كي يظهر المصطلح بحلته العلمية الكاملة، وبالضبط في الولايات المتحدة(Levet-Gautrat,Maximilienne , & Fontaine, Anne, 1987, P3).

يمكننا إذن وبناء على ما قدمناه أعلاه أن نمضي قدما إلى الحديث عن الجيرونتولوجيا الإكلينيكية ومعها المقاربة السيكولوجية من جهة، ومن جهة أخرى رصد الخطوط العريضة للجيرونتولوجيا الاجتماعية، إذ هذان الحدّان العلميان: السيكولوجيا والسوسيولوجيا هما اللذان أطرنا فيهما اشتغالنا على الموضوع كما أشرنا إلى ذلك آنفا في مقدمة هذا المقال .

الجيرونتولوجيا الإكلينيكية Gérontologie clinique: تبقى هي نافذتنا على المعارف البيولوجية حول الشيخوخة؛ إذ التطبيقات التجريبية على النموذج الحيواني لا تَعِد بالكثير؛ لأنه ما من كائن حي استطاع أن يطيل أمد حياته مثلما فعل الكائن الإنساني. وهكذا فإن ما ميز دراساتها هو رصدها لما يسمى التراكم المفضي إلى المرض، وكذا رهانها على إيجاد علاجات مناسبة للأمراض التي شخصتها، فكان عليها أن تتحول إلى قاض يحكم في مختلف قضايا الطب الوقائي والعلاجي الذي تبقى هي، أي الجيرونتولوجيا الإكلينيكية من يحدد ويوجه ويثمن ما يصل إليه هذا الطب.

المقاربة السيكولوجية: وتتناول الشخص المسن من مختلف الزوايا السيكولوجية التي تتيح تشكيل صورة سيكولوجية عن المحطة العمرية – الشيخوخة – وأثرها على الفرد. ويمكننا الحديث هنا عن السيكولوجيا الجنسية للمسن؛ أي الوضع العاطفي والجنسي وأثره على التشكيلة النفسية للمسن. كما يمكن الإشارة إلى السيكولوجيا المعرفية للمسن، إضافة إلى سيكولوجيا الذاكرة عند المسن، والسيكولوجيا المرضية للمسنين.

الجيرونتولوجيا الاجتماعية Gérontologie sociale: تهتم بدراسة شيخوخة الجماعات البشرية **vieillissement des populations** وأثرها على الجوانب الاقتصادية والسيكولوجية والاجتماعية على مستوى الجماعات الإنسانية أو على مستوى الفرد. ويمكننا القول

أنها سوسيولوجيا شيخوخة، بالجمع والمفرد. وقد عرفت هذه الجيرونتولوجيا انطلاقتها سنة 1954 على يد **Tibbits**(تيبيتس) الذي كان عرابا لهذه التسمية؛ حيث امتد المبضع السوسيولوجي في دراسة المسنين إلى قضايا: الوضعية المادية والأخلاقية، والمكانة الاجتماعية، والأدوار الاجتماعية، تأثير وحضور المسن في المجتمع، اندماج وتأقلم المسن، أشكال التقبل والاحتواء من عدمها إزاء المسن ...إلخ

إذا كانت الجيرونتولوجيا بما هي علم للشيخوخة ضامّة لعلوم مختلفة، تبقى نواتها الصلبة هي المسن وما يعتريه من التغيرات وأثر ذلك عليه جسديا ونفسيا واجتماعيا، وأثر ذلك على محيطه وأثر محيطه عليه باعتبار وضعيته العمرية؛ فإننا سنقتصر على مجهري السيكولوجيا والسوسيولوجيا لمقاربة الموضوع، وإلقاء نظرة علمية على ما نحن سائرون باتجاهه لا محالة نقصد حافة العمر والحياة.

ثانيا: المسن وسيكولوجيا النهاية

1.سيكولوجيا المسن:

أ.النمو؟: لقد قام علماء النفس بنسخ وإلصاق دراسة التحولات المعرفاتية على التطورات البيولوجية للنمو، باعتبار العمر الكرونولوجي متغيرا مستقلا رئيسا، واحتمال الوفاة ونسبة الوفيات كمتغير تابع. كان هذا إلى حدود 1970، لقد دفعت ثلاث وقائع هامة إلى إعادة النظر في هذا المنظور.

أولا: أدت ملاحظات علمية ودراسات إلى أن بعض السيرورات المعرفاتية لا تتأثر بالسن: القدرة على تخزين المعلومات واحدة من ضمنها.
ثانيا: تبين أن الفروقات التي تَظهر أنها في علاقة مع التقدم في السن ليست بالضرورة معزوّة إلى تغيرات.
ثالثا: أظهرت معطيات تجريبية أن استعادة مهمة للقدرات هي ممكنة حتى سن متقدمة. وأن قدرات جديدة يمكن أن تنبثق في هذه المرحلة بالكثير من التدريب(Bideaud, Jacqueline, Houdé, Olivier, &Pedinielli, Jean-Louis. 1994.P528).
هكذا فذكاء الراشد وذكاء المسن لا يمضيان في مسار ثابت أو محدد. بل هو ذكاء متعدد الأبعاد، متعدد الاتجاهات، يتميز بتنوع كبير حسب تعدد الأفراد. يتميز أيضا بمطواعيتهSa plasticité يتعلق الأمر إذن بتحولات تبدو كتوليفة متفاوتة الدرجات لسيرورة من التراجع وسيرورة من النمو حسب منظور بالتسBaltes الألماني، وهذا المنظور هو الذي سنعتمده لمقاربة الشيخوخة سيكولوجيا من زاوية سيكولوجيا النمو عموما. وسنقدمه انطلاقا من مجموع القضايا التي ذكرها في كتابه Life spain and Behavior Propositions والتي تبين السمات الرئيسة للتحولات المعرفية التي يحملها معه التقدم في السن,(Bideaud,Jacqueline, Houdé, Olivier,&Pedinielli, Jean-Louis, 1994, P524).

القضية1: السمة الرئيسة لذكاء المسن هي الثبات والاستقرار في مخزونه وطاقته الذهنية، وفي قدرته الوظائفية في نظام عادي. (وسط عادي).

القضية 2: إذا ما كان التراجع موجودا في الاشتغال الذهني؛ فإنه يتجلى أساسا في المهام التي تتطلب حدا أقصى من الموارد ومستوى رفيعا من الفعالية [ومعنى ذلك أن الأمر ليس مرتبطا بالسن في حد ذاته، وإنما هو معزوّ لقلة المران].

القضية 3: يمكن أن تحصل تغيرات إيجابية ذهنية عند المسن [والمقصود أن الربح والخسارة يتوازنان. مثلا ليست هناك فروقات مهمة إذا ما قارنا على مستوى المسن وغيره، فيما يتعلق بالذاكرة في عمومها، أو الأفكار العامة للنصوص.

القضية 4: مع التقدم في السن، أهداف أغلبية الأفراد تصبح أقل توجيها نحو الفعالية عكس فئات الشباب.

القضية 5: إحدى أهم السمات المتعلقة بالنمو عند المسن هي التخصص والتركيز على الخصائص الفردية La spécialisation sur caractéristiques individuelles فروقات مهمة تم رصدها على مستوى التحولات المعرفاتية؛ سواء أسلبية، أم إيجابية.

القضايا 6 - 7- 8: تركزت على البعد السوسيولوجي للنمو السيكولوجي للمسن:

-المنتمون من المسنين إلى أوساط ثقافية راقية يستمرون نشطين ومتأقلمين وفاعلين، ما يفسر فعاليتهم وكفاءتهم.

-البقية تتميز بمحدودية القدرة على التأقلم مع متغيرات البيئة المحيطة.

-الوضع البيولوجي الفردي ليس ثابتا في هذه المرحلة أو تلك من التقدم في السن، فهو يحافظ على نوع من المطواعية.

ب.الذاكـــرة: لا مراء في أن التقدم في السن يؤدي إلى نقصان في الذاكرة، وهو ما أظهرته أبحاث في الولايات المتحدة الأمريكية National Institute of Mental Health تحت تسمية Age associeted memory impairment.

يمر التذكر أو الذاكرة عموما بالآليات التالية Encodage,stockage,Récupération ترميز – تخزين – استرجاع، في الشيخوخة يبدو أن التخزين Stockage قد نجا، لكن فيما يتعلق بفعالية عمليات الترميز والاسترجاع فقد تأثرت بعامل التقدم في السن.

الترميز يحول المعلومة إلى أثر ذاكري Trace mnésique، والمسنون لا يستطيعون القيام بعمليات ترميز فعالة. أما الاسترجاع فهو عملية الاستعادة للمعلومة عن طريق الدخول إلى الأثر الذاكراي وهو نوعان: السريع أو الأوتوماتيكي، والاسترجاع المتحكم فيهcontrôlée، وهو ما نميزه في Know وRemember.((Syssau, Arielle. 1998,P452)، الأول يغدو مع التقدم في السن أكثر هيمنة (المسن لا يقوم بالاسترجاع وإنما يتعرف المعلومة).

تنطلق الأبحاث حول شيخوخة الذاكرة من كون أصل النقص في الموارد المعرفاتيةCognitives راجعا إلى أن النظام المعرفاتي الإنساني نظام محدود.

تتراجع ذاكرة العمل من حيث القدراتMémoire de travail ما يؤدي إلى صعوبات في إنجاز المهام، الشيء الذي يفضي إلى ارتفاع عبء المعالجة.

هناك أيضا تراجع لسيرورة الكبح Inhibition (أي التخلص من المعلومات غير المفيدة) في مقابل مقاومة سيرورة التنشيط للتقدم العمري، ونحن نعلم أن سيرورة الكبح تؤدي وظيفتين أساسيتين: ضبط آلية التنشيط مع عدم تثبيت غير المرغوب فيه من المعلومات، وكذا إقصاء ومسح ما ليس مرغوبا. الأولى تنجو في الشيخوخة، بينما تتأثر الثانية بشكل كبير.

أيضا عند المسن يحصل Le ralentissement cognitif البطء المعرفاتي، وهكذا اقترح بعض الباحثين (Salthouse)(سالتهاوس) تفسير الشيخوخة المعرفاتية بتباطؤ سرعة المعالجة.

هناك أيضا نقص على مستوى الميتا ذاكرة يسجل عند المسن، مع تركيز بعض الأبحاث على دور العامل العاطفي؛ إذ رغم السن فإن تدخل هذا العامل يعزز أو لا يعزز المقدرات الذاكراتية. ويمكننا القول أنه في الذاكرة ما كل شيء يشيخ.

ج.المسن والتحليل النفسي: بول لوران آسونPaul- LaurentAssoun، يبين أن الأمر يتعلق بشيخوخة الليبيدو، علينا أولا أن نقوم بضبط تناسق حدث الشيخوخة على ساعة اللاوعي، وعليه فالشيخوخة هي كلمة تصف سلسلة من التأثيرات الخاصة، ما الذي يشيخ إذن؟

الإجابة عن هذا السؤال الصعب تتمثل في كلمة واحدة: الليبيدو. لأن هذه الأخيرة هي المادة الخام (مجازا) للنفسية. الشخص إذن محكوم تطوره وقدره بليبيدوه الخاصة. والشيخوخة تمس بناء على ذلك الموقف من التمتع بها على مستوى الترجمة النفسية لها؛ لأن لِلّيبيدو تاريخا La libido a une histoire، لذلك فهي تتطور((Assoun, Paul-Laurent,1983,P170

غير أن السؤال لا يكمن في: هل الليبيدو قابلة للنقص والتدهور والتآكل؟

ولكن: ما الذي يحدث لليبيدو في تطورها حتى يؤدي إلى تغير القدرة على الاستمتاع؟

يمكن مقارنة الليبيدو بالخمر الذي إما يعتق أو أنه يصير قريبا من الخلّ. فلنحدد الليبيدو المعتقة أو الجيدة، والليبيدو الخلّية، وكيف يحدث تغير المذاق.

الليبيدو ترافق مراحل نضج الجسد، فبعد عاصفة المرحلة ما قبل التناسلية، وقيظ المرحلة التناسلية، نصل إلى الدرجة صفر للبنية؛ لأنه ما من مرحلة ما بعد تناسلية !

لقد اشتهر فرويد بفكرته عن أن الأناس المسنين لا يمكن تربيتهم، و مقصوده من هذه الفكرة بعبارة أخرى هو أنه لا يمكن أن نفلح في جعلهم يتخلصون من التثبيت La fixation الذي حصل في حياتهم. وهكذا فالمسن لا يتميز بالقابلية للتربية بالألمانية :Erziehbarkeit ما يجعله بتأثير الزمن في نفس وضعية الاستبعاد والإقصاء التي حدثت للشاذ والمريض النفسي منذ البداية.

عند المسن أسئلة كهذه: هل يحبني الآخر؟ هل أستطيع أن أحبه؟ سؤالان منغرسان في قلب الليبيدو؛ لأنهما يحيلان على أزمة العلاقة بين الذات المسنة والموضوع. وهو ما يخلق ظهور علاقة جديدة بالمحرم L'interdit، وتصبح العلاقة بين "هُو" المسن و"أناه الأعلى" كعدوين يغضان الطرف عن البضائع المهربة على حدودهما التي كانت منيعة فيما مضى. ويصبح الأمر وكأن الأنا صار محبوبا من طرف الهو، ما يفرض مراوحة للمسن بين مكانين: الحكمة La sagesse والشذوذ.

2.المسن والتعلم:

إن أغلب الدراسات المتوفرة حول التعلم في مرحلة العمر المتقدم، تعتمد المقارنة بين عينتين: الأولى لمجموعة مسنة، والأخرى لمجموعة شابة. لكن هناك صنفا آخر يركز على تتبع السيرورات المعرفية والتعلم على شريحة من الأفراد وذلك على امتداد مراحل طويلة من تقدمهم في السن. الأولى تدعى الدراسة بالعينات Etude par échantillonnage والثانية تدعى Diachronique متعاقبة، وكلا الفئتين يخلص إلى أن بعض الوظائف الإدراكية والمعرفية تغدو مع التقدم في السن أقل كفاءة وفعالية، بينما تظل أخرى مستقرة، في حين يحصل نمو أو تحسن للبعض الآخر. وعموما فإن التطور الملاحظ يمكن رصده كما يلي: مع التقدم في السن نصير أكثر بطء، والذاكرة تصبح أقل فعالية، لكن معارفنا العامة وثقافتنا وتحكمنا في الآليات اللغوية تتحسن كلها، إضافة إلى تنامي القدرة على حل المشكلات بطريقة أكثر أصالة.

هناك أيضا تمييز بين الذكاء المرنL'intelligence fluide والذكاء المتبلور L'intelligence Cristallisée.الأول يبدأ في التراجع ابتداء من سن الأربعين، بينما الثاني يبقى قارا، بل يزداد أحيانا ويتحكم المسنون بشكل جيد جدا في الكفاءات اللغوية العليا، ويتوفرون على معرفة واسعة بالعالم والتجارب الحياتية.

هناك أيضا تراجع عند المسن فيما يتعلق بمعالجة المعلومات، وتراجع ثان في ذاكرة العمل والذاكرة طويلة الأمد، بينما يبقى الرصيد المعجمي مستقرا بلا تدهور، بل يزداد تحسنا.

إن التراجعات الملاحظة أو إن شئنا التدهور لا تلعب فيه التربية، أو الانتماء الطبقي دورا حاسما، وإنما تراجع الإدراكات الحسية (السمع والبصر) هو الحاسم في التراجع الإدراكي، والمعرفاتيcognitif(DellaChiesa, Bruno, 2007,P228).

فالتراجع المعرفاتي المرتبط بالتقدم في السن يتأثر بشكل كبير بالعامل البيولوجي مثلما أثبت Baltes(بالتس) وLindenberger(ليندنبرغر) . الشيخوخة إذن تؤثر على استخدام استراتيجيات التعلم فيما يتعلق بالمهام المعرفاتية، خصوصا إذا ما وضع المسنون في بيئات لم يعتادوا عليها. هكذا فإن المسنين مثلا لم يقدروا على الجمع بين مهمتين مختلفتين في دراسة لـ Li(لي) وآخرين؛ حيث لم يتوفقوا كثيرا في القيام بتذكرها، بينما نجح الشباب بكل سهولة في ذلك. النتيجة: تتدهور كفاءات المسنين التي أشرنا إليها علما أنها تعد حاسمة في التعلم.

وهكذا، فإذا كان التعلم في الشباب والرشد يستهدف بالأساس تنمية الاستقلالية؛ فإنه عبر مراحل العمر اللاحقة يصبح مستهدفا لتدبير فقدان الاستقلالية الجسدية، واستخدام الشبكات الاجتماعية الموضوعة رهن إشارة المسن بطريقة خلاقة ومنتجة. إن هدفه الأعلى الوقاية من التبعية والاتكال Prévenir la dépendance

وعلى هذا فإن ما يميز تعلم المسن، أو ما ينبغي التركيز عليه في هذا التعلم هو البيئات الاجتماعية والثقافية أكثر من التركيز على الجوانب البيولوجية أو المعرفية؛ لأنها تميز ثلاثة أنواع من الشيخوخة: العادية – التقريبية - المرضية.

وسيرورة الشيخوخة تختلف من فرد لآخر؛ لذلك فإن التعلمات واستراتيجياتها ينبغي أن تأخذ بعين الاعتبار هذه الأنواع، وكذا الاختلافات الفردية.

من زاوية نوروتربوية؛ فإن التقدم في السن يؤدي إلى نقص في حجم المادة الرمادية.(DellaChiesa, Bruno. 2007,P331). لكن لم يثبت أن هناك نقصا في عدد النورونات، لكن الأبحاث في النهاية تجمع على أن التقدم في السن له أثر على نقص تنشيط الباحات الدماغية المسؤولة عن الإدراك؛ لذلك يتم الاستنجاد بمناطق دماغية مختلفة وإضافية (أو مكملة) من أجل مواجهة التدهور (أو التراجع) في كفاءات معالجة المعلومة، وبالتالي فإن التعلم يرتكز بالأساس من ناحية نوروتربوية على هذا الاستنجاد أو التنشيط الجديد.

وما دام الأمر كذلك؛ فإن هذه المطواعية الدماغيةPlasticité du cerveau يتم الحفاظ عليها، أو أنها تبقى مستمرة حتى مع التقدم في السن.

لقد بينتLa neuroimagerie(التصوير العصبي) الوظيفية أن هناك فروقات مرتبطة بالسن فيما يتعلق بتنشيط المناطق الدماغية أثناء عملية إنجاز المهام الإدراكية والمعرفية، وبالتالي أثناء التعلم، وأن هذه الفروقات متمركزة بالضبط في .Le cortex préfrontal(قشرة الفص الجبهي)

لقد ظهرت تقنيات جديدة فيNeuroimagerie(التصوير العصبي) مثل L'imagerie du tenseur de diffusion (DTI)(تصوير موتر الانتشار) والتي تسمح بملاحظة مجموع الخلايا العصبية في الدماغ البشري الحي، وبناء على هذه الملاحظة يتم ربط العلاقة بين التغيرات المعرفاتيةLes changements cognitifs والتغيرات في حجم المادة البيضاء، وهذه العلاقة هي جد مهمة وحاسمة؛ لأننا نعلم أن الوظائف التنفيذية Les fonctions exécutives العليا هي جد حساسة ومتأثرة بالتقدم في السن، وفي نفس الوقت هي جد حاسمة وأساسية في التعلمات الجديدة، والتعبيرات المختلفة عن الذكاء المسمىL'intelligence fluide الذكاء المرن.

لهذا فإن أهم ما تركز عليه الأبحاث الجديدة في التعلم، خصوصا ما تعلق منها بتخصص النوروتربوية؛ هو فيما يخص المسنين أن تهيّء بيئات التعلم بشكل جيد، وأن يتم استثمار

التجارب الشخصية للمسن، والاعتماد عليها؛ سواء أفي علاقته مع ذاته، أم في علاقته مع الآخرين، والانتباه إلى أن المسن في تعلماته يحتاج وقتا أطول لحل المشكلات، لكن دون نسيان أن مكتسباته تغدو أكثر تنظيما وأكثر فعالية.

عموما، يمكن اختصار كل هذه المعطيات المتعلقة بتعلم المسن في العبارتين التاليتين: Respecter l'autonomie de celui qui apprend، (احترام استقلالية من يتعلم) وFavoriser la coopération(و تيسير التعاون)، تسهيل التعاون و احترام استقالية الشخص الذي يتعلم . مع تنويع الطرائق(DellaChiesa, Bruno, 2007,P339).

ثالثا المسنوسوسيولوجيا العمر الثالث:

1.سوسيولوجيا للشيخوخة:

إن دراسة هذا البناء أو كيف يشيد المجتمع مفهوم الشيخوخة؛ تكمن في تحليل الطريقة التي يبنين structure بها المجتمع هذه السن من الحياة. من أجل ذلك لا بد من إيلاء الأهمية للفاعلين الاجتماعيين الذين يساهمون في هذه البنينة، والدولة بعد ذلك عبر السياسات الاجتماعية التي تنتهجها، وهكذا نسلط الضوء على مؤسسة "التقاعد"، وكيف تم إنشاء مفاهيم كـ"العمر الثالث"، "المسنون المرعيون"، وكذا دراسة التمثلات الاجتماعية للشيخوخة، وأخيرا رصد طبيعة العلاقات بين الأجيال العمرية.

أ.**التقاعــد:** الشيخوخة المعاصرة لا يمكن فهمها اجتماعيا إلا باستحضار إقامة المجتمعات المعاصرة لمؤسسة التقاعد، سنضرب صفحا عن التحقيب التاريخي لظهورها؛ إذ لا فائدة لدينا من تتبع تطور التقاعد الفرنسي مثلا، ولا سبيل إلى العثور على ذلك المغربي، لكن عموما يمكن القول أنها حاصل تفاعل الحركة العمالية وأرباب العمل والدولة.

لقد شكل التقاعد وسيلة من وسائل الدولة لمحاربة البطالة عند الشباب، وشكل لأرباب العمل فرصة لتقليل موظفيهم وتشبيب أطر مقاولاتهم(Caradec, Vincent. 2001,P12).

مع التقاعد سيتم ضبط الإيقاعات العمرية للعمل المأجور، عبر ثلاث مراحل عمرية:

-الشباب: مرحلة التمهيد للعمل.
-الرشد: العمل المنتج.
-الشيخوخة: مرحلة التقاعد، والتكفل عن طريق مؤسسات وأنظمة الرعاية. يمكن نعت هذا بـ"مأسسة مراحل الحياة" كما أطلق عليهMartin Kohli(مارتن كوهلي) وذلك بإنشاء تكافل اجتماعي بين الأجيال. غير أن الظاهرة الملاحظة هي حاليا عملية الجمع بين التقاعد وفي نفس الوقت ممارسة عمل إلى جانب ذلك. وهو ما سيدفع مستقبلا إلى إعادة تفاوض بين الأجيال حول إعادة الترتيب لعمر العمل Le temps de travail.

لقد ساهم التقاعد أيضا في إنشاء مفهوم "العمر الثالث" الذي راج بشدة في سبعينيات القرن الماضي، إن هذا المصطلح كان يريد القطع مع لفظة شيخوخة، بالإحالة أكثر على شباب جديد. وقد كانت الدولة الفرنسية كمثال منخرطة في سياستها تجاه المسنين بإحداثها لمشروع "إدماج المسنين في المجتمع". من خلال خدمات عديدة وتجهيزات ووسائل الرعاية. وقد كان لهذه السياسة أثر إيجابي على تحويل اتجاه السياسة العمومية المتعلقة بالمسنين من التركيز على البعد الاقتصادي إلى التركيز على البعد الاجتماعي. وهو ما أفرز انقلابا في علاقات القوة بين الأجيال Inversion des rapports de force؛ إذ أصبح المسنون يرفضون أن يكونوا عالة على أبنائهم؛ فاتجهوا أكثر إلى الاعتماد على أنفسهم في ظل التسهيلات المقدمة.

ب.التمثلات حول الشيخوخة: هناك أرضيتان تنبسط فوقهما التمثلات الاجتماعية حول الشيخوخة: "التدهور" Le declin والشيخوخة الجيدة bien vieillir.
لقد أصبحت الشيخوخة عند البعض مرادفة للتدهور، ومحملة بثقل سلبي يجعلها كمصطلح، شبيهة بالميز العنصري، درجة أن باحثا كـ "روبير باتلر" Robert Batler يصف هذا التمثل السلبي بـ âgisme(الكِبر) على غرار العنصريةRacisme . غير أن هذا التمثل الانتقاصي، أثبتت الأنثربولوجيا عدم كونيته، وعليه أثبتت اجتماعيته فالميريMeruفي كينيا لا ينظرون إلى الشيخوخة على أنها تدهور، وإنما على أنها نضج و نجاح في الحياة.

هناك تمثل ثان أكثر إيجابية، يقضي بأن الشيخوخة الناجحة ممكنة، وأنه يمكننا أن نشيخ بطريقة جيدة وبالتالي في تعارض مع الرؤية السابقة التي ترتبط بكون الشيخوخة علامة على النهاية والتدهور، غير أنه في نظرنا فإن هذا التمثل الثاني منطلق من الأول.

ج.العلاقة بين الأجيال: من بين الأمور التي تحرص عليها المجتمعات، هو تنظيم العلاقات بين الأجيال وكلمة الأجيال هنا تقال سوسيولوجيا بمعنيين:
-الدورة العائلية أو الجيل العائلي (جد – أب – ابن...)
-نسمي المعنى الثاني Générations du welfare، ونقصد: الشباب في طور التكون – النشطون – والمتقاعدون.
ونوعا الجيل هذان يحيلان على أشكال مختلفة من التكافل، التكافل العائلي، التكافل العمومي، وكلا التكافلين يتقاطع ويتبادل التأثير والتأثر. حسب قراءتين مختلفتين يمكننا النظر إلى هذه العلاقة:

-الأولى: التكافل العمومي عوَّض التكافل العائلي، هذا الأخير الذي تراجع بفعل التحديث الصناعي الرأسمالي، وتراجع أيضا بفعل ما أحدثه إدخال التكافل العمومي نفسه. (تعرضت هذه القراءة للنقد).
-الثانية: عكس الأولى ترى أن الحداثة لم تلغ التكافل العائلي لصالح العمومي، وإنما العائلي مستمر من خلال التدفق المساعداتي في الاتجاهين مادي من المسن إلى الأبناء، وخدماتي تعاوني من الأبناء تجاه المسن(Caradec, Vincent. 2001,P37-38) غير أن هذه العلاقة التكافلية

تبقى مهددة دوما بتلك الاتكالية التي قد تطبع توجه المسن نحو الأبناء. ما يغلب على هذه العلاقات بين الأجيال هو لا تكافؤ توزيع ثروات الدولة؛ إذ يميل الميزان لصالح المسنين في السياسات العمومية، مثلا الإنفاق على دور الرعاية على حساب المساعدات العائلية.

د.المسنون: فئة عمرية لا متجانسة

الأكثر تقدما في السن: رغم كونهم اعتماديين بشكل كامل على غيرهم؛ لكنهم يميلون نحو كونهم أكثر هشاشة، وذلك لتآكلهم الفيزيولوجي والجسدي.

يتميزون بالتقوقع الاجتماعي داخل فضاء البيت ورفض الخارج، وذلك راجع لسببين: اعتبارهم البيت كمَعلَم مرجعي وكحماية من كل الأذى الخارجي.

يعتبرون البيت معلما هوياتيا؛ لأنه رمز لاستمراريتهم، جسر بين ما هم عليه وما كانوه، ثم معلم فضائي وزمني، مليء بالذكريات الدافئة.

الخاصية الثانية لهؤلاء هي نقص الروح الاجتماعية La baisse de sociabilité . فالاحتمال كبير جدا أن يكون المسن هنا فقد شريك حياته، عند النساء أكثر من الرجال الوفيات في الأصدقاء والأقرباء والانغلاق داخل البيت يؤدي بشكل كبير إلى انخفاض هذه الروح الاجتماعية.

المسنون المعتمدون على مساعديهم: نقسم المساعدين إلى مساعدين غير رسميين(غير محترفين) Informels (أسرة، أصدقاء، جيران، متطوعون). ومساعدين محترفين، وعملهم يتكامل في العناية بالمسن، ولا ينبغي أن نفهم هذه العناية فقط اتجاه ما هو خدماتي أو مادي، ولكن أيضا في وظيفة الحماية والحفاظ على الرابط الهوياتي واستمراريته.

المسنــون المهاجــرون: هؤلاء ظلوا لمدة طويلة في الهامش، هناك 8% من المتقاعدين مهاجرون (في فرنسا) تعلن أغلبيتهم أنها مرتاحة في تقاعدها وفي البلد المستقبل(Caradec, Vincent. 2001,P84) الذي يتعلقون به، الغالبية تبقى (حالة فرنسا) في البلد المستقبل بعد التقاعد، ما يدعو إلى الانتباه هو أن المسن المهاجر مندمج بشكل كبير في المجتمع، مع الحفاظ على العلاقة بالبلد الأصل. لكن الوضعية التي تبدو غير مريحة هي تلك الخاصة بالنساء المسنات المهاجرات واللائي ليست لهن الموارد المالية الكافية أو تغطية صحية، ولا يتقن اللغة في بلد المهجر.

الشيخوخة كسيرورة وكتجربة

انتقالات الشيخوخة: يبقى المرور إلى التقاعد متميزا بظواهر ثلاث، جعلت التقاعد مرغوبا من طرف المسنين: - نهايات مسار مهني صعبة – الحساسية تجاه كل ما يتعلق بالعمل سيكولوجيا وجسديا – ما أصبح يمنحه التقاعد من إمكانات لتحقيق المسن لمشاريع تسمح له بتحقيق الذات. وهذا الانتقال يبدو صعبا فيما يخص فئتين: الأطر الموظفة العليا، والنساء اللائي يعتبرن العمل وسيلة للهروب من الانغلاق البيتي بعد نضج الأبناء. ويمكننا تقسيم الفئات المسنة في علاقتها بالانتقال إلى التقاعد كما يلي:

L'acteur novateur الفاعل المجدد : يكون انتقاله صعبا.

L'acteur pluriactif : الفاعل متعدد النشاط انتقال عادي(Troadec, Thomas.1998).
ويبقى التأثير على الانتقال التقاعدي مرتبطا بعاملين أساسيين:

-الطريقة المستقبلية لعيش المسن.
-مدى فجائية التقاعد.
هناك أيضا مسألة الترملLe veuvage، الذي يهم النساء أكثر من الرجال، انتقال مؤلم يعيشه المسن أو المسنة، ما يتطلب إعادة هيكلة وتنظيم لحياة الأرملة أو الأيم، ما ينعكس على تغير هويته، وكذا إعادة تنظيم علاقاته الاجتماعية، الترمل هو فراغ البيت، الوحدة المؤلمة. ما يثير الانتباه أن العلاقات مع الأسرة أو الأبناء تضيق لصالح انفتاح علائقي خارجي(Caradec.V,P84).

هناك أيضا انتقالات أخرى كالدخول إلى دور الرعاية وأثره على هوية المسن.

نظريـــــات: النظريات الأمريكية بين 1950 و 1960، لم تكتف بوصف الشيخوخة اجتماعيا، بل حاولت تقديم الدعائم العلمية لشيخوخة ناجحة، وهذا ما لم ينل حظوته عند الباحثين الفرنسيين، وعموما يمكن تقسيم النظريات السوسيولوجية للشيخوخة إلى فئتين:
-نظريات النشاط أو الفاعلية
-نظريات التحرر من الالتزام
نظريات النشاط: تمت صياغتها في حدود 1950، معتمدة على دراسة Robert Havighurst وRuth Albrecht على عينة مسنين تعيش في قرية صغيرة بالغرب الأوسط لأمريكا؛ حيث أبدى المسنون ارتياحهم، واختلفت درجة هذا الارتياح بحسب الوضعية الاجتماعية. وعليه؛ فإن الشيخوخة الناجحة Le vieillissement réussiتمر عبر الحفاظ على درجة عالية من الانخراط والالتزامL'engagement بحيث يتم تعويض المفقودLes pertes أو الخسائر الاجتماعية للشيخوخة بأدوار جديدة كالمسن المواطن، أو المسن الأسري المرتبط بممارسة أدوار الجد كمؤسسة اجتماعية، مع المرونة في هذه الأدوار. (Caradec, Vincent. 2001)

نظرية التحرر من الالتزام: La théorie du désengagement: اعتمدت على دراسة لـ Elaine Cummingو William Henri وقدم لها تالكوتبارسونز، ووظفت نتائج البحث على عينة مسنين من كانساسKansas city؛ حيث تم رصد ابتعادéloignement أو تحرر من الارتباطdésengagement بين المسن وبقية أعضاء النسق الاجتماعي الذي ينتمي إليه، يترجم هذا التحرر بتقليل الأدوار الاجتماعية للمسن عبر قلة في التفاعلات الاجتماعية التي صارت مركزة أكثر على الروابط العاطفية وليس على التضامن الوظيفي، ونتيجة هذا التغير، يحصل توازن جديد في النسق. هكذا بحده من الاجتماعي يعيش المسن حياة هادئة لكي "يمر من حياة كانت طويلة إلى موت محتوم، لكن في هدوء"(Caradec, Vincent. 2001,P98).

ويتميز هذا التحرر أيضا بالمميزات التالية: متبادل، وظيفي، غير معكوس، وكوني فتراق نتيجة يؤدي إلى اتفاق ودي توفير العملÀ l'amiable وإدماج الشباب وتجنب أثر الموت المفاجئ على المجتمع وما يخلفه من خلل، كما هناك أيضا المقاربات الفينومينولوجية للشيخوخة المرتكزة على العوالم الاجتماعية.

أهم نتائج الدراسة:

يتبين لنا إذا أن الجيرونتولوجيا أو العلم بالمسنين علم يحتاج إلى مزيد من التمكين و الاهتمام، و حيث أنه ملتقى طرق العديد من العلوم من بينها السيكولوجيا والسوسيولوجيا، فإن الأبحاث في هذين التخصصين محتاجة اليوم إلى المزيد من دراسة قضايا المسن، ورغم أن المجتمعات العربية هي مجتمعات شابة مقارنة بمجتمعات أخرى كما هو الحال مثلا عند بعض المجتمعات الأوروبية، و رغم أن مجتمعاتنا ما زالت تحافظ على أشكال من الرعاية لهذه الفئة، رعاية ذات طابع تكافلي تحركها القيم الأسرية و المجتمعية أكثر منها رعاية مؤسسية حكومية، فإن هذا المعطى نفسه هو دليل وباعث على المزيد من الاهتمام العلمي بهذه الفئة. لقد وقفنا على أن سيكولوجيا المسن طابعها تراجع في العديد من الوظائف بحكم التقدم في السن ونفسية شديدة التغير والتقلب، كما أن العلاقات الاجتماعية من الناحية السوسيولوجية تتميز بجدتها على المسن: التقاعد مثلا، الترمل في بعض الحالات، وبينا أيضا أن المسنين ليسوا فئة متجانسة نهائيا، بالإضافة إلى إنارة العديد من المعطيات حول التمثلات عن الشيخوخة، و لذلك فإننا من خلال ما تقدم نرى أن الأبحاث العربية في مجالي السيكولوجيا و السوسيولوجيا ينبغي أن تنصب على قضايا المسنين و أن لا يترك هذا المجال غفلا و أن يتم إيلاؤه العناية اللازمة.

خاتمة

إن النظرة التي تسكننا دوما، هي أن الشيخوخة تنتمي إلى فضاء المستقبل، تنتمي إلى الحافة العمرية حيث لا رجوع، نقطة الوصول، لذلك كمجتمعات عربية رمينا بها علميا إلى خانة المؤجل و البعدي، لأننا لسنا مجتمعات هرمة، و رمينا بكل ما هو علمي إلى انتظارية محرقة، و الحال أن الشيخوخة مجرد لفظ ينبغي أن نخلصه مما لحقه من تهميش علمي، و من أجل ذلك لا بد أن نطرح على أنفسنا الأسئلة المستعجلة قبل فوات الأوان:

ما هو الباراديغم الذي تشتغل في إطاره العلوم الإنسانية العربية عموما، و المغربية خصوصا؟

هل علومنا الإنسانية هي إفراز لزخم اجتماعي و إنساني، وهل تناسلت قضاياها من رحم الراهن؟أم أنها فقط تمرين علمي تطبيقي للعدة العلمية الغربية؟ و هل هذا التنزيل المراني يلمس موطن الجرح ؟أم أنه يتيه و يغترب عن موضوعه العربي؟ و ما موقع الشيخوخة في أولويات البحث العلمي عندنا؟

تبدو الشيخوخة كقضية ممحوة من أجندة علومنا الإنسانية، والرهيب أن هذا الشباب الجامح تنفقه مجتمعاتنا في لا مبالاة.

ليس لدينا جيرونتولوجيا لأن هذه تتنفس هواء علوم أخرى على رأسها السيكولوجيا، فأين سيكولوجيانا؟

وماذا أعددنا لذلك اليوم علميا يوم نجد أنفسنا على عتبات الهامش، يوم نشيخ؟

في انتظار قيام جيرونتولوجيانا، لا بد من إعادة إنهاض لعلومنا الإنسانية على أسس علمية متينة ببعثها من رمادها الاجتراري و تخبطاتها المنهجية، و تيهها الموضوعاتي، و حيرتها البارادیغمية.

لا بد من إعادة جدولة للديون المعرفية العلمية كي نحدد القضايا الملحة، و لنحرص على جعل الشيخوخة في قلب الأولويات العلمية، لأننا باستبعادها نقصي أثمن ما تصل إليه الإنسانية و هو عصارة تجاربها، المسنون ذاكرة البشرية، إن أي إهمال لدراسة المسن علميا سيؤدي لا محالة إلى خلل في التعاقب الجيلي، لقد وقفنا على حداثة علم الجيرونتولوجيا في الغرب، و بينا أن الغرب لم ينهض إلى مسنيه إلا بعد أن شاخ، نحن لم نشخ بعد لذلك فالأوان لم يفت بعد من أجل فتح ورش الجيرونتولوجياالعربية، اليوم نحن في مرحلة التساؤل و التشخيص و الأمل و الترقب، و هذه طبعا هي الخطوة الأولى.

قائمة المراجع:

1.Assoun, Paul. Laurent. (1983). Le vieillissement saisi par la psychanalyse. Communications, 37(1), 167-179

2.Balierclaude et all, Encyclopaediauniversalis, version électronique 2011, article : Gérontologie.

3.Bideaud, Jacqueline, Houdé, Olivier, &Pedinielli, Jean-Louis. (1994). L'homme en développement. 2éd.Presses universitaires de France.

4.Caradec, Vincent. (2001). Sociologie de la vieillesse et du vieillissement. Domaines et approches (3e édition). Armand Colin.

5.Cariou, Michel. (1982). Psychologie et vieillissement. Cahiers de la méditerranée, 24(1), 147-160.

6.DellaChiesa, Bruno. (2007). Comprendre le cerveau: naissance d'une science de l'apprentissage. Paris. Ed. OCDE.

7.Levet-Gautrat,Maximilienne , & Fontaine, Anne (1987). Gérontologie sociale. Presses universitaires de France.

8.Syssau, Arielle. (1998). Le vieillissement de la mémoire: Approche globale et approche analytique. L'année psychologique, 98(3), 451-473

9.Troadec, Thomas. (1998). Les salariés ont-ils un âge?.Gérontologie et société, (85), 17-38.